الفتنة

ضع في يدي القيد ألهب أضلعي ضع عنقي على السكين هذا البيت الشعري مثّل لعقود ماضية، فلسفة لكثير من الجماعات الإسلامية، التي كانت تعلّم أفرادها أن من أبجديات السير في طريق الدعوة التعرض للأذى، فيجلد الظهر ويسجن الإنسان، ويخرج يده من بين القضبان رافعاً المصحف، وهكذا..

لماذا..؟

لأن هذه هي صبغة الدعوة...

إن فلسفة «الاستضعاف» هذه والتي لا تريد أن تخرج المسلم من «شِعْب أبي طالب» ومما قبل الهجرة إلى المدينة رغم مرور القرون، فلسفة ليست من الإسلام في شيء، بل إن بعض الجماعات لا ترى رصيداً مشرفاً لها إلا «الألم» وهي بذلك لا تكون عظيمة إلا إذا كانت طوال سنوات أو عقود مقبرة للمنتمين إليها، وأذكر في هذا الصدد جماعة عقدت مؤتمرا لها وكان مكتوبا على اللافتة التي رفعتها شعارا للمؤتمر عبارة تجدّد العهد لبعض رموزها الذين ذكرت أسماؤهم على تلك اللافتة، وكانوا ثلاثة سجينان ومتوفّى.

إن الابتلاء مرفوض في الدعوة كأصل، لذلك يجب أن يكون الأصل هو أنه «لا ابتلاء»، بل تمكين لأن الله ينزل دينه ليسود لا ليموت، على الجماعات الإسلامية أن تعمل كل ما في وسعها لئلا يبتلى أفرادها، وأن لا تفكر في شيء إلا إذا احتاطت بألف طريقة لئلا يكون

ذلك الشيء مدخلاً للفتنة والبلاء.. ذلك لأن وجود المسلم في السجن أو في المنفى أو متخفياً، معناه بُعده عن ميدانه ومجاله الحقيقي، لذلك فإن موسى عليه السلام لما قتل نفْساً وتخفى، اعتبر ذلك منه خطأ، رغم أنه قتل كافراً ظالماً من قوم فرعون.. غير أن القرآن اعتبر ذلك خروجاً عن الجادة.. لذلك نادى موسى ربه سبحانه: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي..﴾ وقال الله تعالى: ﴿فغفر له إنه الغفور الرحيم﴾ واعتبر ذلك جريمة: ﴿قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾.

القتل والتخفي لا يصلح لنبي يريد أن يكون مصلحاً، لأن الإصلاح يقتضي مخالطة الناس، لذلك قال الرجل الذي أراد موسى أن يقتله في المرة الثانية: «يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، إنْ تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض، وما تريد أن تكون من المصلحين»... لأن المصلح كما قلنا يجب أن يبقى على صلة بالناس ليصلحهم، أما إذا تخفّى أو سُجن، أو أُبعد فإنه يفقد مجال دعوته.

ثم أن الفتنة دمار نفسي وإيماني رهيب، لذلك كان الأنبياء يسألون الله العفو والعافية، ولا يتمنون لقاء العدو حتى وفي أيديهم السلاح، فكيف يتمنونه وهم دون ذلك ما عندهم غير صدورهم العارية، وأيديهم الفارغة.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تتمنوا لقاء العدو، ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا»..

إذا لقيتموه...

والمسلم لا يجب عليه أن يدع ـ بما أباح له الشرع ـ مدخلاً إلى الفتنة والبلاء إلا ويسده، وبعكس ما ترى بعض الجماعات الإسلامية، فإن

البلاء مفْسد، فكم من أناس فتنوا فيه عن دينهم، وكم من جماعات اصطدمت بواقعه الأليم فعادت إلى الصفر في متبنياتها الفكرية، مرة باسم المراجعة، ومرة باسم التوبة، ومرة بغير ذلك من الأسماء. ولقد أثبتت الدراسات النفسية أن العذاب والضيق والتشديد والبلاء، أمور تفرز واقعاً نفسياً مشوهاً، وتؤثر هذه التشوهات ولاشك، في النفس البشرية التي هي وعاء العقيدة، لذلك تتأثر العقيدة ذاتها.

ولقد كان الصحابة، رضي الله عنهم، يتضجرون مما يلقونه من عذاب، فيأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: «ألا تدعو لنا؟.. ألا تستنصر لنا؟».

وكان بعضهم لشدة العذاب يتلفظ بما يلقنه المشركون.

ولقد جاء في الفصول في سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، لابن كثير:

«ولما اشتد أذى المشركين على من آمن، وفَتنوا منهم جماعة، حتى أنهم كانوا يصبرونهم ويلقونهم في الحر، ويضعون على صدورهم الصخرة العظيمة على صدر أحدهم في شدة الحر، حتى إن أحدهم إذا أطلق لا يستطيع أن يجلس من شدة الألم فيقولون لأحدهم: اللات إلهك من دون الله، فيقول مكرها: نعم، وحتى إن الجعل ليمر فيقولون: هذا إلهك من دون الله، فيقول: نعم. ومر الخبيث عدو الله أبو جهل عمرو بن هاشم بسمية أم عمار وهي تعذب وزوجها وابنها فطعنها بحربة في فرجها فقتلها، رضي الله عنها وعن ابنها وزوجها»[١٢].

إن الحديث عن الفتنة لا يجب أن يكون حديثاً عن ثلة تنجح في

١٢ ـ الفصول لابن كثير ص ٩٩

تجاوز نارها، بل يجب التنبه إلى الذين تقعد بهم طاقات تَحَمُّلِهم عن اجتياز واديها، فيقعون بذلك في المحذور والمحظور.. والتجربة والواقع يقولان صراحة أن آلافاً من الناس كانوا ملتزمين، فإذا ما وقعت الفتن ارتد الكثير منهم، ليس عن أفكارهم فقط، بل وحتى عن أمور الدين كالصلاة وغيرها.

غير أن البلاء قدر، وقد ينزل رغم كل الاحتياطات، وهنا يكون الأمر طبيعياً، غير أنه يكون قليلاً.. إذ أن هناك فرقاً شاسعاً بين جماعة تفتن في عمرها مرة، وبين أخرى ليس لها من ديدن سوى تقديم أبنائها إلى السياط والمشانق.

وربما يقول قائل أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتُلي، وأن الصحابة عُذّبوا، وأن الكثير من الأنبياء قتلوا وأوذوا، وهذه طبيعة الطريق، وهذا صحيح ولكن لننظر إلى رسول الله صلى عليه وسلم كيف كان يقدّم ما يؤَمّنه من الفتنة، لننظر قليلاً إلى سيرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

ـ اختار السرية لكي لا يصطدم.

ـ لجأ إلى منعة عمه أبي طالب، لينشر في كنفها الدعوة... وذلك أيضاً لكي لا تصل إليه يد بسوء.

ـ لجأ إلى الطائف طلباً للحماية من أذى قومه.

قال ابن كثير: «فلما نقضت الصحيفة وافق موت خديجة رضي الله عنها، وموت أبي طالب، وكان بينهما ثلاثة أيام، فاشتد البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفهاء قومه، وأقدموا عليه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف لكي يؤووه وينصروه على

قومه ويمنعوه منهم، ودعاهم إلى الله عز وجلّ، فلم يجيبوه إلى شيء من الذي طلب، وآذوه أذى عظيماً، لم ينل قومه منه أكثر مما نالوا منه»[١٣].

- دخل في جوار المطعم بن عديّ، بن نوفل بن عبد مناف، طلباً للحماية ولئلا يبتلى.

- أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لئلا يبتلوا.

قال ابن كثير: «فلما اشتد البلاء أذن الله سبحانه وتعالى في الهجرة إلى أرض الحبشة، وهي في غربي مكة، بين البلدين صحارى السودان والبحر الآخذ من اليمين إلى القزم، فكان أول من خرج فارا بدينه إلى الحبشة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبعه الناس. وقيل بل أول من هاجر إلى أرض الحبشة هو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك، ثم خرج جعفر بن أبي طالب وجماعات، رضي الله عنهم وأرضاهم وكانوا قريبا من ثمانين رجلا»[١٤].

- في بيعة العقبة الثانية، كانت البنود التي بويع عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما روى ذلك أحمد عن جابر: «على أن تنصروني إذا قدمت إليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة..»

- أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالهجرة إلى المدينة وهاجر هو.

وفي السيرة الكثير من هذا، مما يدل على أن فلسفة الدعوة قائمة على

١٣ - الفصول ص ١٠٥

١٤ - الفصول ص١٠٠، ١٠١

إيجاد الحماية اللازمة، وعدم التعرض للأذى، لذلك كان ما يحدث بعد ذلك من العذاب والفتنة أمور مُقدّرة رغم الاحتياط، وما كان رغم الاحتياط كان عفواً.

ثم أن هناك فرقاً بين دعوة تقوم على فلسفة الاحتياط، والفتنة فيها أمر قليل، نادر، واستثنائي، وبين دعوة من أصولها التعرض للبلاء.

لهذا كان تفريق الجماعات أمراً يقوم على توجيه هذا السؤال إليها:

ـ هل الابتلاء أمر طبيعي لازم، أمْ غير ذلك..؟

وقد رأينا في الكثير من أدبيات عديد من الجماعات الإسلامية أنها تتحدث عن كون الابتلاء أمراً لازماً لا مناص منه في الدعوات الصحيحة، وإن لم يحدث فمعنى ذلك أن هناك خللاً ما يجب الانتباه إليه.

غير أن هذا ليس صحيحاً، فالأصل هو أن الابتلاء بمعنى تعذيب الآخرين للمسلمين أمر غير لازم، ولا يمكن أن يكون طبيعة ولا مقياساً للدعوة وصحتها وسلامتها، بل العكس من ذلك هو الصحيح، فالدعوة التي لا تعرف النصر، ولا تقوم من مشكلة إلا لتقع في أخرى دعوة غير طبيعية.